٦ ـ إلى أرض النبوة !

للأستاذ على الطنطاوى

أبصرنا الشمس وهى تثبت فى آخر السهل ، ورأينا سواد الليل يمتد حيال الأفق الشرقى ، ونحن لا نزال فى أعالى الجبال المطلة على تبوك ، والفضاء الأرحب الذى يحيط بها ، فتنازعنا الرأى واختلفنا : أنبيت مكاننا فنهبط تبوك مصبحين ، أم نصبر على ما نجد من السغب واللغب ، ولا نبالى الليل وظلمته ، ونتمّ طريقنا إليها ، فننام فيها نوم الآمن ... وطال الخلاف ولم يكن علينا أمير منا ، مع أن ذلك من السنة ، واليمن والبركة فيه . فقطعتْ سيارتنا كل قول حين أخذت طريقها هابطة ، وتبعتها السيارات بلا جدال ، وكان ضوء السيارات وهى فوق الجبل متوجهة إلى تبوك يبدو قوياً منظوراً ، وكان أمير تبوك على علم بقدومنا ، فبعث إلينا بسيارته تستقبلنا وتهدينا ، فعرفناها بضوئها ، فتبعناها حتى بلغت بنا السهل ، ثم أوصلتنا البلد ، وقد كاد ينتصف الليل ...

* * *

وصلنا البلد على حال لم نكن نملك معها ملاحظة ولا نظراً ، ولقد شغلنا ما نجد من الجوع والتعب عن أن نبصر المدينة ، أو نرى مسالكها ، وما عرفت إلا الدار التى أنزلونا فيها ، وليست داراً كالتى عرفنا فى القريات ، ولكن بناء حضرى واسع منظم ، مبنى على طراز فنى مقبول ، ذو ردهات وغرف وأبهاء ، فأدخلونا بهواً فيه ، مفروشاً بالبسط والوسائد و (الطرارىح) . استقبلنا فيه الأمير « السديرى » وهو شاب مهذب[1] ، على غاية من اللطف والنبل والرقة ودقة الملاحظة ، وقد علمت أنه من أنسباء جلالة الإمام « عبد العزيز » أعزه الله . فلما استقر بنا المقام ووجدنا بعض الراحة ، أحببت أن أقوم فأجول فى القصر ، فلما خرجت من البهو عرض لى أحد العبيد وهم كثر فى القصر ، فقال لى : من هنا . فتبعته وأنا لا أدرى إلى أين يسير بى ، حتى انتهى إلى باب ، فأشار إليه وتخلّى عنه ، فدخلت ، فإذا أنا فى حمّام ما ظننت أنى ألقى مثله فى دمشق ، له ظاهر وباطن ، وفيه الماء البارد والحار والرشّاش « الدوش » والمناشف معلقة والصابون مهيأ ، فدهشت وفرحت فرحاً ما أفرح مثله لو أعطيت مائة دينار ، مع أنى لم أرها قط ولم تحتوها يدى إلى الساعة التى أكتب فيها هذه الكلمة ... فعدت فاستخرجت من حقيبتى ثوباً نظيفاً ، ولم أرض لثيابى التى كانت علىّ إلا بيت النار — أحرقتها وأبيك — ودخلت الحمام وأنا أنظر إلى الباب أخشى أن ينزل على من يشاطرنى هذه النعمة أو ينغّصها علىّ فلا أهنأ بها ، وأقبلت أصبّ على جسمى من الماء الحار فأحسّ له بعد هذا التعب بما تحس الأرض اليابسة عطل عليها المطر ... حتى إذا انتهيت عدت إلى أصحابى بوجه متورد ، وثياب نظيفة . فجنّ جنونهم عجباً ودهشة، ولكن وجود الأمير أمسك ألسنتهم؛ فلما جلست أفضيت إلى جارىّ بالأمر فتسلل من مكانه إلى الحمام ، وما زالوا يذهبون واحداً بعد واحد حتى اغتسلوا جميعاً . وكان إعداد الحمام أول ما شهدنا من لطف الأمير السديرى ـ أمير المدينة المنورة الآن ـ وتهذيبه ...

فلما انتهوا وكان المزيع الأخير من الليل دعينا إلى المائدة ، وكان فيها الخروف « المعهود » برأسه ... ولكن حوله ألواناً من الخضر كالفاصولياء والباذنجان والطماطم موضوعة فى أطباق صغار ، وعلى المائدة الملاعق لمن شاء ، فجلس الأمير وجلسنا ، وأكلنا أكل من لا يخشى البشم !

ولم نفق إلا فى ضحى الغد ، فأفطرنا ورأينا البلد ، فإذا الدار التى نزلناها مستشفى كبير كان العثمانيون قد أقاموه عند ما مدّ الخط الحجازى ، وأمامه رحبة واسعة جداً ، ويقابله من آخر الرحبة المحطة العظيمة ، وبينهما على يسار من يقف على باب المستشفى ويستقبل المحطة بساتين النخيل تتخللها البلدة ، وهى ستون بيتاً ، فيها مسجد كمسجد القريات ، وفيها قصر الإمارة ؛ والبساتين تسقى من عيون ثلاث بارك الله فيها إكراماً لنبيه صلى الله عليه وسلم ، على ما هو مقرر فى كتب المغازى

هذه هى تبوك ومن حولها الصحراء وهى نصف طريق المدينة

* * *

(١) سمعت كثيرين من إخواننا يستعملون كلمة « جنتلمان » بدعوى أنه ليس فى العربية ما يقابلها ، مع أن كلمة « مهذب » هى نفسها . وقد استعمل هذا الحرف بهذا المعنى « تقريباً » منذ الجاهلية . قال النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أى الرجال «المهذب» ؟

ذهبنا نزور الأمير فى قصره الزيارة الرسمية ، فدخلنا منزلاً صغيراً جدرانه من الطين ، لا يختلف عن منازل الفلاحين فى القرى الفقيرة من قرى الشام ، فصعدنا درجاً ضيقاً ملتوياً إلى ردهة صغيرة تطل على أرض الدار ، ولها درابزين من خشب عادى ليس فيه زخرفة ولم يَعله صبغ ، ثم ولجنا غرفة ضيقة لم تكد تسعنا فى صدرها مكتب صغير ، وليس فيها إلا مقاعد من الخشب وكان الأمير وراء مكتبه فنهض لاستقبالنا بلطفه الذى وصفت

وكنت قد أبصرت على الدرج وفى أرض الدار ، وفى الردهة العالية عدداً عديداً من العبيد، فعجبت من كثرتهم ولم أدر ما عملهم، فلما قال الأمير بصوت منخفض : قَهْوَة . سمعت العبد الذى يقوم على رأسه يقول بصوت أرفع : قهوة ، فيقول الذى على الباب : قهوة . فيصرخ الذى فى الردهة: قهوة. فينقلها الذى على الدرج، ثم الذين فى أرض الدار ، حتى يبلغ الصوت صانع القهوة . وكانت تلك عادتهم ولكنا لم نكن نعرفها، فما راعنا ونحن نسلم على الأمير ونتحدث إلا ستون قهوة . . . قهوة . . . بأصوات كالصوت الذى ذكره ربنا فى القرآن، تخرج متعاقبة متلاحقة كصراخ الجن، لا يفهم منها شىء. فلم ندر ماذا حدث، وعملت المفاجأة عملها فى نفوسنا، فنا من صاح ، ومنا من ابتدر الباب ، ومنا من سقط على الأرض ، ومنا من وضع يده على سلاحه . . . وكان الأمير مبتسما مسروراً من هذه الدعابة ...

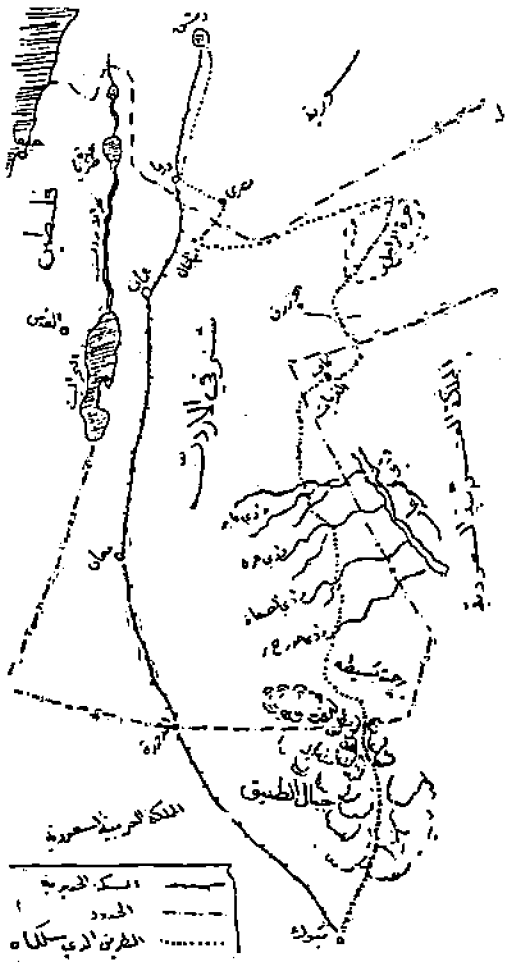

وليس كثيراً أن نحمل فى سبيل القهوة هذا الفزع ، فإن للقهوة عند العرب اليوم من الشأن ما يقل معه كل تعب ينال من أجلها ، ولها عندهم قواعد وقوانين لا معدل عنها ولا ترخيص فيها ، فمن قوانينها أن البن يدق بالهاون دقاً حتى يسمعه الضيفان فيهرعوا إليها ، ولا يجوز أن يطحن طحناً لأن ذلك من اللؤم ، وأنهم يتخذون لها أوانى كثيرة يصبون القهوة من إناء إلى آخر ليصفوها ويرققوها ، ويسمون كل دلّة من هذه الدلال باسم ، فهذه العروسة ، وهذه الأم .. ولقد رأيت عند أمير تبوك أكثر من عشرة أوان (دلال) كلها مملوءة ، والساقى يحبها حباً شديداً ، ويراها فى معدلة أولاده ...

وهم يخلطونها بحب الهيل ، ويضعون قطعة من الليف فى فم الدلّة تقوم مقام المصفاة، فإذا نضجت القهوة قام الساقى فأخذ الإناء باليسرى وقدم الفناجين باليمنى ، ويرون تقديمها باليسرى كما يفعل الشاميون إهانة للضيف قد تجر إلى سفك الدم والعياذ بالله تعالى ... فيأخذ الضيف الفنجان بيمينه فيشربه ويدفعه إليه ، فلا يزال يصب فيه حتى يهزه الضيف ثلاث هزات علامة على أنه قد اكتفى ولا يصبون فى كل مرة إلا رشفة واحدة لا تكاد تستر قعر الفنجان وعندهم أن هذا من الإكرام ، وإذا ملأ الساقى فنجان أحدهم كان ذلك احتقاراً له. ويبدأ الساقى ممن على يمينه ثم يعطى من يليه ، وإذا هو تخطى واحداً فقد أهانه إهانة بالغة لا يصبر عليها إذا كان شريفاً ، وإذا اكتفى الضيف ولم يأخذ الفنجان بعد أن يسبّه الساقى وجب على الساقى أن يشربه هو أو يريقه على الأرض ولو كان على الأرض بساط قيم أو سجاد ثمين ، ولا يدفعه إلى الذى بعده ...

هذا جانب من قوانين القهوة ، وللقهوة عند العرب شأن كبير فقد يستغنى البدوى عن الطعام والماء ، ولكنه لا يستغنى عن القهوة ولا يعدل بها شيئاً ، وقد يميل عن الطريق مسيرة يوم ليشربها . وقد حدثنا أستاذنا شكرى الشربجى، وقد كان على رأس فرقة عسكرية من العرب أيام الملك حسين رحمه الله : أنه افتقد جنده فى ساعة حرجة فلم يجدهم ، فلما عادوا سألهم، فأخبروه أنهم افتقدوا القهوة فذهبوا ليشربوها ؛ فقال : فى مثل هذه